Al-Mukhtar Journal of Social Science 44 (1): 385-397, 2026
Doi: https://doi.org/10.54172/ndvkan63

Research Article Open Access

ليبيا في المدونات الرحلية الكلاسيكية وصناعة المعرفة الجغرافية والتاريخية والتفاعل الحضاري في الفكر المتوسطي

خالد آدم أحميدة جاب الله[1]*

الباحث الأول[1]*:
قسم التاريخ ، جامعة طبرق، طبرق، ليبيا

المستخلص: تهدف الدراسة إلى تحليل المدونات الرحلية والجغرافية الكلاسيكية بوصفها مصدرًا مركزيًا لإعادة بناء صورة ليبيا في العهدين الروماني والبيزنطي، وتجاوز القراءات الوصفية التي تتعامل معها كمجرد تجميع معلومات. وتنطلق من إشكالية تتعلق بمدى تعبير هذه النصوص عن الواقع المادي والاجتماعي، أو إعادة إنتاجها لتمثلات إمبراطورية ورمزية تخدم السلطة والتنظيم السياسي، مع اختبار حدود التفاعل المتبادل بين الرحالة والسكان المحليين. تعتمد الدراسة منهجًا تاريخيًا نقديًا مقارنًا يجمع بين التحليل النصي لأعمال جغرافيين ومؤرخين قدماء وأدوات تحليل الخطاب، مع الاستئناس بالمعطيات الأثرية والطبوغرافية عند توفرها. وتخلص إلى أن ليبيا ظهرت في الفكر المتوسطي فضاءً ديناميكيًا لإنتاج المعرفة والتبادل الثقافي عبر الموانئ والطرق الصحراوية، وأن إعادة قراءة هذه المدونات بمنظور متعدد الزوايا تعيد الاعتبار لدور الإقليم في تشكيل الجغرافيا الذهنية المتوسطية وتفتح أفقًا لدراسة علاقة السفر بالمعرفة والسلطة في العصور الكلاسيكية.

الكلمات المفتاحية: ليبيا القديمة، المدونات الرحلية الكلاسيكية، المعرفة الجغرافية التاريخية، الفكر المتوسطي، التفاعل الثقافي.

***[1]Corresponding author:**
Khalid A. Jaballah
khalid.adam@tu.edu.ly
Department of History,
University of Tobruk,
Tobruk, Libya

Received:
01-04-2026

Accepted:
15-04-2026

Publish online:
30-04-2026

Libya in Classical Travel Accounts and the Construction of Geographical and Historical Knowledge and Cultural Interaction in Mediterranean Thought

This study examines classical travel and geographical writings as a key source for reconstructing Libya's image in the Roman and Byzantine periods, moving beyond purely descriptive readings. It addresses whether these accounts reflect empirical realities or instead reproduce imperial and symbolic frameworks that served Roman and Byzantine power, while also considering the limits of reciprocal interaction between travelers and local communities. Methodologically, the article adopts a critical, comparative historical approach that combines close textual analysis of major classical authors with discourse analysis, and it draws on archaeological and topographical evidence where available. The study argues that Libya occupied a dynamic position in Mediterranean intellectual geography as a space of knowledge production and cultural exchange shaped by ports, inland routes, and desert networks. It concludes that rereading these narratives through multiple perspectives challenges inherited clichés and helps restore Libya's active role in the formation of Mediterranean geographical and historical imagination, contributing to broader debates on travel, knowledge, and authority in antiquity.

Keywords: Ancient Libya, Classical Travel Accounts, Mediterranea Thought, Historical and Geographical Knowledge, Cultural Interaction

The Author(s) 2024. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium ,provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

المقدمة

تحتلّ المدونات الرحلية الكلاسيكية مكانة محورية في دراسة تاريخ ليبيا القديم، إذ شكّلت أحد أهم مصادر المعرفة الجغرافية والاجتماعية والسياسية عن الإقليم في العهدين الروماني والبيزنطي. فقد أسهم الموقع الجغرافي لليبيا على تخوم الصحراء الكبرى وسواحل البحر المتوسط في جعلها مجالًا دائمًا للحركة والتنقّل والتواصل، الأمر الذي جذب الرحالة والجغرافيين والمؤرخين الذين سعوا إلى وصف فضائها الطبيعي وسكانه ومدنه وموارده. ولم تكن هذه الكتابات مجرّد تسجيل للمشاهدات، بل جاءت محمّلة برؤى فكرية وسياسية وثقافية أسهمت في تشكيل الصورة المتوسّطية عن ليبيا بوصفها فضاءً للتفاعل الحضاري وحدًّا جغرافيًا في آنٍ واحد.

ينطلق هذا البحث من تحليل نصوص الرحالة الإغريق والرومان والبيزنطيين للكشف عن الكيفية التي صُنعت بها المعرفة حول ليبيا، وعن الدور الذي لعبته الرحلة في بلورة الوعي الجغرافي والتاريخي، وفي بناء صورة ثقافية مركّبة للإقليم داخل الفكر المتوسطي الكلاسيكي.

أهمية الدراسة: تنبع أهمية البحث من كونه يعيد قراءة النصوص الرحلية بوصفها أدوات لإنتاج المعرفة لا مجرّد أوصاف محايدة، ويبرز موقع ليبيا في قلب شبكات التفاعل المتوسطي، بعيدًا عن التصورات التي تختزلها في هامش جغرافي. كما يقدّم إسهامًا في فهم العلاقة بين المعرفة والسلطة في العالم القديم، ويكشف عن أثر التبادل الحضاري في صياغة التصورات الثقافية المتبادلة.

هدف الدراسة: يهدف البحث إلى تحليل دور الرحالة في تشكيل الصورة الجغرافية والتاريخية لليبيا، وتتبع آليات إنتاج المعرفة في نصوصهم، وبيان كيفية انعكاس التفاعل الحضاري بين ليبيا والعالم المتوسطي في هذه المدونات، مع إبراز التحولات في النظرة إلى الإقليم بين العهدين الروماني والبيزنطي.

إشكالية البحث: تتمحور إشكالية الدراسة حول السؤال المركزي الآتي:

كيف أسهمت المدونات الرحلية الكلاسيكية في صناعة المعرفة عن ليبيا، وفي تشكيل صورتها الجغرافية والثقافية داخل الفكر المتوسطي، وما حدود التداخل بين الوصف العلمي والخيال والوظيفة الإمبراطورية في هذه النصوص؟

تساؤلات الدراسة: ينبثق عن هذه الإشكالية عدد من التساؤلات الفرعية:

- ما السياقات السياسية والدينية والاقتصادية التي أحاطت بالرحلات إلى ليبيا في العصرين الروماني والبيزنطي؟
- كيف صوّر الرحالة الفضاء الليبي وسكانه ومدنه؟
- ما دور النصوص الرحلية في نقل المعارف وفي بناء شبكات التفاعل المتوسطي؟

- إلى أي حد ارتبط إنتاج المعرفة بالمشاريع الإمبراطورية؟
- كيف انعكست الهويات المحلية الليبية داخل هذه الكتابات رغم صدورها من خارج الإقليم؟

فرضية البحث: ينطلق البحث من فرضية مفادها أنّ المدونات الرحلية لم تكن مجرد انعكاس مباشر للواقع، بل كانت نتاج تفاعل معقّد بين الملاحظة الميدانية والتصورات الثقافية المسبقة والوظائف السياسية للإمبراطورية، وأن ليبيا ظهرت في هذه النصوص بوصفها فضاءً فاعلًا في إنتاج المعرفة المتوسطية لا مجرد موضوع للدرس والوصف.

المنهج المتبع: يعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي المقارن، من خلال قراءة نقدية للنصوص الكلاسيكية ومقارنتها بالسياقات السياسية والثقافية التي أُنتجت فيها، مع الإفادة من المناهج الجغرافية والثقافية الحديثة في دراسة تمثّلات المكان وصناعة الصورة الحضارية، وذلك للكشف عن آليات بناء المعرفة والهوية في الخطاب الرحلي.

المبحث الأول: الرحلة إلى ليبيا في العهدين الروماني والبيزنطي ودورها في إنتاج المعرفة والتفاعل الحضاري في العالم المتوسطي

المحور الأول: السياقات التاريخية والمعرفية للرحلات في ليبيا خلال العهدين الروماني والبيزنطي

تُعد الرحلات إلى ليبيا في العهدين الروماني والبيزنطي ظاهرة فكرية وحضارية بارزة، ساهمت بشكل كبير في تطوير المعرفة الجغرافية والتاريخية للعالم المتوسطي. فقد شكّل الموقع الاستراتيجي لليبيا، الممتد من شواطئ كيرينايكا شرقًا وصولًا إلى حدود تريبوليتانيا، (خريطة 1) نقطة التقاء بين شعوب العالم القديم، مما جعلها ساحة خصبة لنشاط الرحالة والعلماء والجغرافيين الراغبين في دراسة طبيعتها وثقافتها وسكانها (Mattingly, 1995, p. 42).

نشأت الرحلات إلى ليبيا في ظل تداخل السياقات الدينية والاقتصادية والسياسية. فمن الجانب الديني، تمثّل ذلك في زيارة المعابد والمراكز المقدسة، مثل معبد آمون في واحة سيوة*، الذي جذبت شهرته شخصيات بارزة مثل الإسكندر الأكبر، بينما كان الدافع الاقتصادي محفزًا للرحالة والتجار والمغامرين للبحث عن الثروات الزراعية والمعدنية .(Goodchild, 1971, p. 88) أما السياق السياسي فكان مرتبطًا بتوسع النفوذ الروماني وبالسياسات الإدارية التي استهدفت ضبط الإقليم وإنتاج معرفة دقيقة عن مناطقه وسكانه لأغراض الضرائب والرقابة.(Bowman, 2012, p. 133)

* معبد آمون في واحة سيوة هو معبد مصري قديم مكرّس للإله آمون، يرجع تأسيسه إلى العصر الصاوي في الأسرة السادسة والعشرين (القرن السادس قبل الميلاد)، وقد اكتسب شهرة واسعة في العصرين الفارسي واليوناني، خاصة بعد زيارة الإسكندر الأكبر له سنة 331 ق.م حيث أُعلن ابناً للإله آمون، مما عزز شرعيته السياسية في مصر (Wilkinson, 2000, pp. 158–160).

كما تميزت الجغرافيا الليبية بتنوّع بيئيّ واسع مكّن الرحالة من دراسة الظواهر الطبيعية والمناخية والبشرية. فالمناطق الساحلية شكّلت مجالًا للتبادل التجاري والثقافي، بينما كانت الواحات والحدود الصحراوية ميادين استكشاف عسكري وعلمي معًا .(Mattingly & Hitchner, 1993, p. 121) وقد أدّت هذه الرحلات إلى تراكم معلومات من المعرفة الجغرافية في العالم القديم.

من الناحية المعرفية، أسهمت هذه الرحلات في صياغة رؤية مزدوجة لليبيا: فهي من جهة تُقدَّم كأرض خصبة ومزدهرة، ومن جهة أخرى كمجال غامض يكتنفه الطابع الأسطوري والحدودي بالنسبة للعالم المتوسطي .(Desanges, 1981, p. 57)وقد ساهمت نصوص الجغرافيين مثل سترابو وبطلميوس في تثبيت هذه الصورة المزدوجة، إذ قدّم الأول وصفًا إثنوغرافيًا* لسكّانها وعلاقاتهم بمصر وكيرينايكا، بينما اهتم الثاني بتحديد مواقعها الطبوغرافية** وطرقها التجارية بدقة رياضية. (بطلميوس، 2004، ص58)

إنّ دراسة الرحلات في ليبيا خلال هذين العهدين لا تُظهر فقط التداخل بين الجغرافيا والسياسة، بل تكشف أيضًا عن تطوّر الوعي التاريخي الأوروبي تجاه شمال إفريقيا، حيث مثّلت ليبيا "الحدّ الجنوبي المأهول" في خريطة العالم القديم.(Bowman & Rogan, 2012, p. 201)

المحور الثاني: الرحالة ودورهم في الوساطة الثقافية ونقل المعارف بين ليبيا والعالم المتوسطي

أسهم الرحالة بشكل محوري في إنشاء جسور ثقافية بين ليبيا وبقية مناطق البحر المتوسط، إذ حولتهم تقاريرهم ونصوصهم الجغرافية والإثنوغرافية إلى وسطاء للمعرفة ومترجمين للتجارب الثقافية. وكانت رحلاتهم ثمرة تفاعل بين ثقافات متعددة، تجمع بين النظرة الإغريقية للعالم والعقلية الإدارية الرومانية التي سعت إلى التنظيم والسيطرة.(Whittaker, 1994, p. 78)

لقد أسهم هؤلاء الرحالة في نقل المعارف المتبادلة حول السكان المحليين، والعادات الاجتماعية، والموارد الطبيعية، والنظام الإداري. فمثلاً، قدّم بلينيوس الأكبر (Pliny the Elder) في مؤلفه *التاريخ الطبيعي* (Naturalis Historia) بيانات دقيقة عن مدن كيرينايكا، ومصادر مياهها، ونباتاتها الطبية المشهورة مثل السلفيوم الذي أصبح رمزًا تجاريًا وثقافيًا للمنطقة (بليني، 2019، ف 31–35)، ومن خلال هذا الوصف، ساهم الرحالة في تشكيل وعي عالمي بخصوصية ليبيا الطبيعية والاقتصادية.

كما مثّل هؤلاء الرحالة وسطاء لتداول المعارف العلمية بين الشرق والغرب. فقد نقلوا خبرات الهندسة والزراعة والري، كما وثّقوا الممارسات الدينية المحلية والتبادلات التجارية مع وادي النيل وصقلية وقرطاج

* **الإثنوغرافيا (Ethnography):** هي منهج بحثي في العلوم الاجتماعية يهتم بدراسة الثقافات والمجتمعات البشرية من خلال الملاحظة المباشرة والمشاركة في حياة المجموعة المدروسة. تعتمد على الوصف التفصيلي للتقاليد والعادات والأنماط الاجتماعية والسلالات والخصائص الثقافية للسكان (Bernard, 2011).

** **الطوبوغرافيا (Topography):** هي العلم الذي يهتم بدراسة ووصف المعالم الطبيعية والصناعية للسطح وتضاريس المنطقة، بما في ذلك الجبال والوديان

.(Desanges, 1981, p. 112)ومن هنا، أصبحت ليبيا مجالًا حيويًا للتفاعل الثقافي عبر البحر المتوسط، حيث امتزجت فيها العناصر الإغريقية والرومانية بالأمازيغية والمصرية في إطار من الانفتاح الحضاري.

لم يقتصر دور الرحالة على مجرد نقل المعلومات، بل شكّل عملية معرفية نقدية أعادت من خلالها النصوص الجغرافية صياغة هوية المكان وتشكيل صورته في الوعي الكلاسيكي. فجميع النصوص التي كتبها سترابو، وسبقَه هيرودوت، ولاحقًا ديودور الصقلي، لم تكن مجرد أوصاف سطحية للأرض، بل كانت تأملات معمقة في الاختلافات الثقافية ومحاولات لفهم "الآخر الإفريقي" من منظور المتوسطي (Herodotus, *Histories*, IV, p. 198).

المحور الثالث: نصوص الرحلة وبناء المعرفة الجغرافية وتشكّل الوعي الحضاري عن ليبيا

تشكل نصوص الرحالة والمؤرخين المصدر الرئيس لإعادة تكوين صورة ليبيا في العصور القديمة، إذ مثّلت هذه النصوص أداة لإنتاج المعرفة الجغرافية والأنثروبولوجيا. وساهمت في بناء وعي حضاري متبادل بين سكان ليبيا وبقية العالم، حيث ظهرت ليبيا فيها كفضاء للتفاعل الثقافي والتثاقف بدلًا من أن تقتصر على كونها مجرد حدود جغرافية.(Mattingly, 1995, p. 217) .

من خلال النصوص الكلاسيكية، تبلورت تصورات متباينة عن ليبيا، جمعت بين الإعجاب بخصب أراضيها والغموض تجاه سكانها. وقد سمحت هذه التصورات بإعادة إنتاج المعرفة عبر العصور، إذ أصبحت مرجعًا للجغرافيين واللاهوتيين* والرحالة في القرون اللاحقة .(Desanges, 1981, p. 130) كما أن التحولات السياسية التي شهدتها المنطقة، من السيطرة الرومانية إلى البيزنطية، لم توقف تدفق المعرفة، بل أعادت تنظيمها ضمن رؤية مسيحية جديدة للعالم، تركز على مركزية البحر المتوسط كفضاء روحي وجغرافي معًا.(Bowman, 2012, p. 198)

لقد بيّنت دراسات حديثة أن نصوص الرحالة لم تكن مجرد انعكاس للواقع، بل كانت أيضًا أدوات في بناء "الوعي الإمبراطوري" الذي أعاد تشكيل إدراك أوروبا للعالم الإفريقي .(Whittaker, 1994, p. 119) ومع ذلك، فإنّ هذه النصوص تكشف أيضًا عن وجود مقاومة ثقافية ضمنية، إذ استطاع سكان ليبيا أن يفرضوا حضورهم في السرديات الكلاسيكية من خلال تقاليدهم الدينية وطرقهم التجارية وأساليب عيشهم، مما جعل التواصل الحضاري عملية متبادلة لا أحادية الاتجاه.

تكشف دراسة نصوص الرحلة في إطارها التاريخي والمعرفي عن الدور الفاعل لليبيا في إثراء الفكر الجغرافي الكلاسيكي، حيث لم تكن مجرد متلقٍ سلبي، بل كانت عنصرًا فاعلًا ساهم في إنتاج تصورات جديدة

* اللاهوتيون هم العلماء المتخصصون في دراسة العقائد الدينية وتفسير النصوص المقدسة وبناء النسق الفكري للإيمان من خلال التحليل الفلسفي والجدلي والتاريخي، ويهتمون بمباحث مثل طبيعة الإله، الوحي، الخلاص، والشرائع الدينية (McGrath, 2017, pp. 1–4.)

للعالم المتوسطي. ومن ثم، لم يقتصر دور الرحالة على كونه زائرًا، بل أصبحوا صُنّاع معرفة أعادوا تشكيل الخريطة الفكرية للعالم القديم.

المبحث الثاني: الرحالة وصياغة التصوّر الجغرافي والتاريخي لليبيا في الفكر المتوسطي

المحور الأول: صورة ليبيا المكانية في المدونات الجغرافية الكلاسيكية

تبلورت صورة ليبيا في الوعي الجغرافي الكلاسيكي عبر نصوص الرحالة الذين سعوا إلى تفسير الفضاء الإفريقي باعتباره امتدادًا للبحر المتوسط، وفي الوقت ذاته منطقة غامضة تحيط بها الأساطير. ويُعد هيرودوت من أوائل من رسم هذه الصورة في القرن الخامس قبل الميلاد، حين وصف ليبيا بأنها "أرض الأسرار والرياح والآلهة"، محددًا حدودها بين مصر غربًا وبلاد الغايتوليين جنوبًا .(Herodotus, *Histories*, IV, p. 200) . وقد كان وصفه مزيجًا بين الملاحظة الميدانية والروايات الشفوية التي تلقاها من السكان المحليين.

ومع العهد الروماني، تطورت هذه التمثلات من مرحلة الانطباع الأسطوري إلى مرحلة الوصف العلمي المنهجي. فبطلميوس في كتابه *الجغرافيا* (*Geographia*)قدّم أول محاولة لتموضع المدن الليبية ضمن نظام إحداثي، واضعًا كيرينايكا وتريبوليتانيا ضمن شبكة طرق مترابطة تمتد نحو الصحراء (بطلميوس، 2004، ص58) .هذا التحول يعكس نزعة الرومان إلى توظيف الجغرافيا كأداة للسيطرة والتنظيم الإداري (Mattingly, 1995, p. 92).

كما ساهمت كتابات سترابو في تأكيد هذا البعد العلمي، إذ نظر إلى ليبيا بوصفها منطقة تندمج فيها الخصائص المتوسطية مع السمة الإفريقية، مشيرًا إلى تداخل الأعراق والعادات، وإلى الطبيعة الخصبة لسواحلها الشرقية في كيرينايكا (سترابو، 2003، ف23) بذلك تحولت ليبيا في المخيال الجغرافي من "أرض غريبة" إلى "فضاء متوسطيّ متفاعل"، ما جعلها جزءًا من الجغرافيا الإمبراطورية للرومان.

الرحالة البيزنطيون بدورهم أضافوا بعدًا روحيًا للمعرفة الجغرافية. فمع انتشار المسيحية، أصبحت ليبيا مجالًا لرحلات رهبانية ومهجرًا لبعض الآباء اللاهوتيين، ما جعل نصوصهم تمزج بين الجغرافيا والخلاص الروحي .(Bowman, 2012, p. 156) ومن هنا نشأ تصور جديد للفضاء الليبي، بوصفه موطنًا للتأمل والزهد أكثر من كونه أرضًا اقتصادية أو عسكرية.

المحور الثاني: الكتابات الرحلية بوصفها مصدراً لإعادة بناء التاريخ الاجتماعي والسياسي

لا يمكن فهم تاريخ ليبيا القديم دون الرجوع إلى نصوص الرحالة التي وثّقت تفاصيل دقيقة عن المدن وسكانها والعلاقات الاجتماعية فيها. فقد ساهم هؤلاء الرحالة في تسجيل معلومات لم تحفظها النقوش أو البرديات، ويُعد بلينيوس الأكبر مثالًا بارزًا على ذلك من خلال موسوعته *التاريخ الطبيعي*، التي قدم فيها أوصافًا مفصلة للمراكز الحضرية في كيرينايكا وكذلك للموارد الزراعية والمعدنية (بليني الأكبر، 2019، ف31–35).

أما الرحالة البيزنطيون فقد أولوا اهتمامًا بالواقع الاجتماعي والإداري للمدن الليبية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين. تشير نصوص بروكوبيوس القيصري*(*Procopius of Caesarea*) ، على سبيل المثال، إلى التغيرات العمرانية التي أحدثتها الإدارة البيزنطية في لبدة وسبراتة، وإلى تجدد النشاط التجاري رغم التراجع السكاني .(Procopius, *Buildings*, VI, p. 211) هذه الشهادات تمنحنا رؤية فريدة لتاريخ ليبيا في مرحلة ما بعد السيطرة الرومانية، حيث امتزجت البنية الرومانية القديمة بالموروث المحلي في إطار بيزنطي مسيحي.

ومن اللافت أنّ النصوص الرحلية كانت تُدوَّن غالبًا من منظور السلطة، إلا أنّها تحمل بين سطورها إشارات إلى أصوات محلية غير مباشرة، كذكر أسماء القبائل والمنتجات والعادات، مما يسمح بإعادة قراءة هذه النصوص بوصفها وثائق عن التفاعل الاجتماعي والثقافي بين المستعمر والسكان الأصليين (Whittaker, 1994, p. 117). وبذلك، يتحول النص الرحلي من مجرّد سجلّ جغرافي إلى مرآة تعكس علاقات القوة والمعرفة في العالم القديم.

المحور الثالث: ليبيا ضمن شبكات التفاعل الثقافي والمعرفي في حوض البحر المتوسط

تُبرز مقارنة نصوص الرحالة الإغريق والرومان والبيزنطيين أنّ ليبيا لم تكن مجرد منطقة هامشية، بل كانت محورًا أساسيًا في شبكة التفاعل الثقافي المتوسطي. فقد شكّلت نقطة التقاء بين الموروث الإغريقي القادم من الشرق والعالم اللاتيني الوافد من الغرب، وكانت موانئها مثل أبولونيا وتوخيرا ولبدة بمثابة بوابات لعبور الأفكار والسلع والرموز الدينية..(Goodchild, 1971, p. 102)

لعبت هذه الموانئ دورًا محوريًا في نقل المعارف العلمية والفلسفية، حيث عبرها وصل فكر أرسطو وأفلاطون إلى الإسكندرية ومن ثم إلى شمال إفريقيا، كما انتقلت منها مدارس الطب والفلسفة إلى روما. وبفضل ذلك، تحوّلت ليبيا إلى فضاء لإنتاج وتبادل المعرفة، وليس مجرد منطقة استقبال للمعلومات.
(Desanges, 1981, p. 118).

في العصر البيزنطي، استمر هذا الدور، لكنه اتخذ أبعادًا جديدة تقوم على التفاعل الديني والثقافي. فقد حمل الرهبان واللاهوتيون الذين زاروا ليبيا نصوصًا لاهوتية وترجمات باللغتين اليونانية واللاتينية، فتحولت الأديرة إلى مراكز علمية مصغّرة تساهم في نشر المعارف اللاهوتية والفلسفية في مختلف مناطق الريف الليبي (Bowman & Rogan, 2012, p. 208). بذلك تحوّل الرحالة من باحثين في الجغرافيا إلى وسطاء في المعرفة الدينية والثقافية.

* بروكوبيوس القيصري (نحو 500–565م) مؤرخ بيزنطي بارز من مدينة قيسارية في فلسطين، عاصر الإمبراطور جستنيان الأول، وعُرف بكتاباته التاريخية التي تُعد من أهم مصادر القرن السادس الميلادي، ولا سيما مؤلفه *الحروب* الذي تناول فيه الحروب الفارسية والوندالية والقوطية، إضافة إلى كتاب *المباني* وكتاب *التاريخ السري* الذي قدّم فيه نقدًا لاذعًا للبلاط الإمبراطوري (Procopius, 1914/1916, pp. ix–xv).

أسهم التثاقف الناشئ عن هذه الرحلات في تكوين "هوية متوسطية" لليبيا، قائمة على الانفتاح على الآخر وتقبل التعدد الثقافي. فقد قدمت النصوص الكلاسيكية ليبيا ليس كمجال هامشي، بل كنقطة التقاء، وبذلك لم يقتصر دور الرحالة على توثيق الجغرافيا فحسب، بل ساهموا في إعادة صياغة الوعي الحضاري للعالم المتوسطي، إذ رأت عيونهم ليبيا كجسر يربط بين الشرق والغرب.(Mattingly, 1995, p. 217) .

المبحث الثالث: التفاعل الثقافي وبناء الصورة الرمزية لليبيا في المدونات الرحلية

المحور الأول: تمثّل الفضاء الليبي في كتابات الرحالة بين المعاينة والخيال

ساهمت نصوص الرحالة في تكوين صورة متعددة الأبعاد لليبيا، تجمع بين الواقعية والخيال، وبين المشاهدة المباشرة والأسطورة. إذ يظهر في كتابات الرحالة الكلاسيكيين تكرار عناصر الغرابة والأسطورة في وصف المكان والسكان. فهيرودوت، على سبيل المثال، الذي كان من أوائل من زاروا أطراف ليبيا ووثق سكانها، قدّم تصويرًا مزدوجًا للمجتمع الليبي، يمزج بين الإعجاب بتنظيمهم القبلي والنظام الاجتماعي لديهم، وبين الدهشة من تقاليدهم الدينية وارتباطهم العميق بالطبيعة.(Herodotus, *Histories*, IV, p. 195)

لم يكن الجمع بين الوصف الواقعي والمبالغة الأسطورية اعتباطيًا، بل كان جزءًا من بنية الخطاب الكلاسيكي حول مفهوم "الآخر". فقد مثلت ليبيا للإغريق والرومان الحد الجنوبي لعالمهم المعروف، لتصبح بذلك أرضًا خصبة لإسقاط مخيلات استشراقية مبكرة تتراوح بين الفضول والرهبة .(Whittaker, 1994, p. 119).

في المقابل، قدّم الرحالة الرومان نظرة أكثر عملية وأقل خرافية، نتيجة ارتباطهم الإداري والسياسي بالإقليم. فبلينيوس الأكبر، في كتابه *التاريخ الطبيعي*، تجنّب المبالغة في الوصف، مركّزًا على الموارد والثروات الطبيعية، وعلى المدن ومؤسساتها (بليني الأكبر، 2019، ف31–35) ومع ذلك، ظلّ تأثير المخيال الإغريقي حاضرًا في أدبيات الرومان أنفسهم، إذ لم تُمحَ صورة "ليبيا الغامضة" من الوعي الجمعي المتوسطي حتى العصور البيزنطية.(Mattingly, 1995, p. 217)

الرحالة البيزنطيون بدورهم أضفوا بعدًا روحانيًا على صورة ليبيا، فجعلوا من فضائها الصحراوي رمزًا للتقشّف والنجاة الروحية. فالصحراء التي اعتبرها الإغريق مجالًا للغرابة، تحوّلت في العهد البيزنطي إلى موضع تطهير وتأمل، مما يعكس انتقال النظرة من البعد الإثنوغرافي إلى البعد اللاهوتي .(Bowman, 2012, p. 198).

المحور الثاني: الخطاب الرحلي ودوره في حفظ الهوية المحلية وإعادة تعريفها

تبيّن الدراسة النقدية للنصوص الرحلية أنّ هذه الكتابات، رغم إنتاجها من منظور خارجي، لعبت دورًا مهمًا في حفظ ملامح الهوية الليبية القديمة. فقد وثّقت أسماء القبائل والمدن والممارسات الزراعية والطقوس

الدينية التي اندثرت لاحقًا، مما منحها قيمة فريدة كمصادر لإعادة بناء الذاكرة التاريخية لليبيا (Desanges, 1981, p. 131).

تكشف دراسة نصوص الرحالة عن جدلية واضحة بين المركز والهامش في إنتاج المعرفة. فبينما كان الرحالة يسعون إلى تفسير ليبيا وفق رؤيتهم الخاصة، مارست المجتمعات المحلية نوعًا من إعادة التعريف الذاتي عبر تفاعلها مع هؤلاء الغرباء. وقد انعكست هذه الديناميكية في الكتابات الإغريقية والرومانية على حد سواء، مع الإشارة المتكررة إلى قدرة الليبيين على التكيف مع الأنظمة السياسية المتعاقبة، مع حفاظهم على تقاليدهم الأصيلة.(Goodchild, 1971, p. 90) .

من هذا المنطلق، يمكن التأكيد على أنّ النصوص الرحلية، رغم نشأتها خارج الإقليم، ساهمت بشكل غير مباشر في ترسيخ الهوية المحلية عبر توثيق تفاصيل الحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية. وقد مكن هذا التوثيق الباحثين المعاصرين من إعادة قراءة التاريخ الليبي بمعزل عن الرؤية الإمبراطورية المهيمنة، مما أتاح فهمًا أعمق للخصوصية الثقافية والاجتماعية للإقليم.(Mattingly & Hitchner, 1993, p. 171)

كما أن التبادل المستمر بين الرحالة وسكان ليبيا خلق فضاءً معرفيًا متعدّد الأصوات، يعبّر فيه "الآخر" عن نفسه داخل خطاب الغريب. فحين يصف سترابو أو بلينيوس العادات المحلية أو الطقوس الدينية، فإنهم في الواقع يعكسون إدراكًا متبادلاً أكثر تعقيدًا مما قد يبدو، إذ يظهر تأثير السكان في تصحيح بعض الانطباعات المغلوطة لدى (سترابو،2003، ف 24).

المحور الثالث: الرحلة بين المعرفة الإمبراطورية والتأمل الإنساني في صورة ليبيا

كانت الرحلات إلى ليبيا جزءًا من مشروع أوسع يهدف إلى إنتاج معرفة تخدم الإمبراطورية الرومانية على المستويين السياسي والاقتصادي. فقد استُخدمت النصوص الجغرافية والإدارية كأدوات لرسم الحدود وضبط الفضاء عبر المعرفة، مما يبرز العلاقة الوثيقة بين الجغرافيا والسلطة في تشكيل صورة ليبيا في الوعي الإمبراطوري .(Whittaker, 1994, p. 122) فالرحالة لم يكونوا مجرد مراقبين، بل كانوا فاعلين في مشروع السيطرة من خلال خرائطهم وتقاريرهم.

إلى جانب ذلك، شكّلت هذه الرحلات مجالًا لتشكّل وعي إنساني أوسع تجاه العالم، حيث مثّلت ليبيا نموذجًا للتنوّع البيئي والثقافي. وقد دفع هذا بعض الرحالة إلى تجاوز النظرة الاستعمارية التقليدية نحو فهم أعمق للطبيعة الإنسانية. فبلينيوس الأكبر، رغم كونه موظفًا إمبراطوريًا، عبّر عن إعجابه بقدرة الإنسان الليبي على التكيّف مع ظروف بيئية صعبة دون فقدان شعوره بالانتماء إلى أرضه. (بليني الأكبر، 2019، ف36).

خلال العصر البيزنطي، اكتسبت الرحلة بعدًا لاهوتيًا وأخلاقيًا، إذ لم تعد مجرد وسيلة للهيمنة، بل تحوّلت إلى فعل للتقوى واكتساب المعرفة الروحية. فالجغرافي أصبح بمثابة "حاجٍّ"، والمكان رمزيًا للخلاص، وهو ما

يبرز بوضوح في نصوص بروكوبيوس التي تصف الأديرة الليبية ومغارات النساك (Procopius, *Buildings*, VI, p. 214).

يعكس هذا التحوّل في معنى الرحلة انتقال ليبيا من كونها مجرد فضاء جغرافي إلى فضاء رمزي، موضحًا تطور الوعي المتوسطي من الاهتمام بالمعرفة العلمية إلى السعي وراء المعرفة الروحية. وبذلك، تُختتم صورة ليبيا في الفكر المتوسطي باعتبارها أرض تلاقي الحضارات ومصدرًا لإنتاج المعنى وتشكيل الهوية الثقافية معًا.

الخاتمة

خلص هذا البحث إلى أن المدونات الرحلية الكلاسيكية كانت أكثر من مجرد سجلّات وصفية؛ فقد شكّلت أدوات معرفية نشطة أسهمت في إنتاج الصورة الجغرافية والتاريخية والثقافية لليبيا في العهدين الروماني والبيزنطي. ومن خلال تحليل نصوص الرحالة، يمكن استخلاص مجموعة من النتائج التحليلية الأساسية التي توضح دور السفر في صناعة المعرفة والتفاعل الحضاري:

1. ليبيا كمركز معرفي وحضاري :أظهرت الدراسة أن ليبيا لم تكن هامشًا للبحر المتوسط، بل كانت عقدة تواصل بين الشرق والغرب. فالموانئ والمدن الساحلية مثل أبولونيا وتوخيرا ولبدة شكّلت بوابات لنقل المعارف العلمية والفلسفية والتجارية، ما عزز من الدور الوسيط لليبيا في شبكة التفاعل المتوسطي.
2. النصوص الرحلية كأدوات لإعادة إنتاج المعرفة :تبين أن نصوص الرحالة مثل سترابو وبطليموس وبلينيوس لم تكن مجرد ملاحظات جغرافية أو إثنوغرافية، بل أدوات لتحليل المكان والناس والموارد، وأصبحت مرجعية لإعادة بناء الفضاء الليبي في وعي المتوسطيين عبر العصور.
3. ازدواجية التصور: بين الواقع والأسطورة :أظهرت المقارنة بين الكتابات الإغريقية والرومانية والبيزنطية وجود صورة مزدوجة لليبيا تجمع بين الغموض الأسطوري والخصوبة المادية. هذه الازدواجية أكدت أن النصوص الرحلية دمجت بين المشاهدة المباشرة والانطباع الثقافي والسياسي للرحالة، ما ساهم في تشكيل وعي متوسطي مركب تجاه الإقليم.
4. دور الرحالة في الوساطة الثقافية :أظهرت الدراسة أن الرحالة كانوا وسطاء ثقافيين فعالين، نقلوا المعارف بين ليبيا وبقية مناطق البحر المتوسط، وساهموا في تداول الخبرات العلمية والزراعية واللاهوتية، مما جعل ليبيا فضاءً للتفاعل الحضاري وليس مجرد موضوع للدراسة.
5. تثبيت الهوية المحلية عبر النصوص الأجنبية :بالرغم من أن الرحلات كانت منظورة من الخارج، إلا أن النصوص الرحلية ساهمت في توثيق عناصر الهوية المحلية، بما في ذلك أسماء القبائل، العادات، والطقوس الدينية، ما مكّن الباحثين المعاصرين من إعادة بناء الذاكرة الاجتماعية والثقافية لليبيا القديمة.

6. العلاقة بين المعرفة والسلطة :أكدت النتائج أن إنتاج المعرفة لم يكن محايدًا، بل ارتبط بالسياسات الرومانية والبيزنطية، سواء في الإدارة، الضرائب، أو الرقابة، ما يعكس جدلية بين المعرفة والهيمنة، وبين الرحالة والسلطة.
7. الرحلة كأداة للتحول الإنساني والروحي :لم تقتصر الرحلات على المعرفة الجغرافية، بل امتدت إلى البعد الإنساني واللاهوتي، خاصة في العصر البيزنطي، حيث أصبح النص الرحلي وسيلة لفهم الطبيعة البشرية والتأمل الروحي، وتحول الفضاء الليبي إلى رمز للزهد والخلاص.

الخلاصة التحليلية: يمكن القول إن نصوص الرحلة في ليبيا لعبت دورًا مركزيًا في تشكيل وعي جغرافي وتاريخي وثقافي متوسطي، مع إبراز ليبيا كفضاء ديناميكي للتفاعل الحضاري، حيث امتزجت المعرفة بالممارسة، والغربة بالتواصل، والأسطورة بالواقع. إن تحليل هذه النصوص بمنهج نقدي يتيح فهم العلاقة المعقدة بين السفر والمعرفة والسلطة، ويعيد الاعتبار لدور ليبيا في التاريخ الفكري والثقافي للبحر المتوسط.

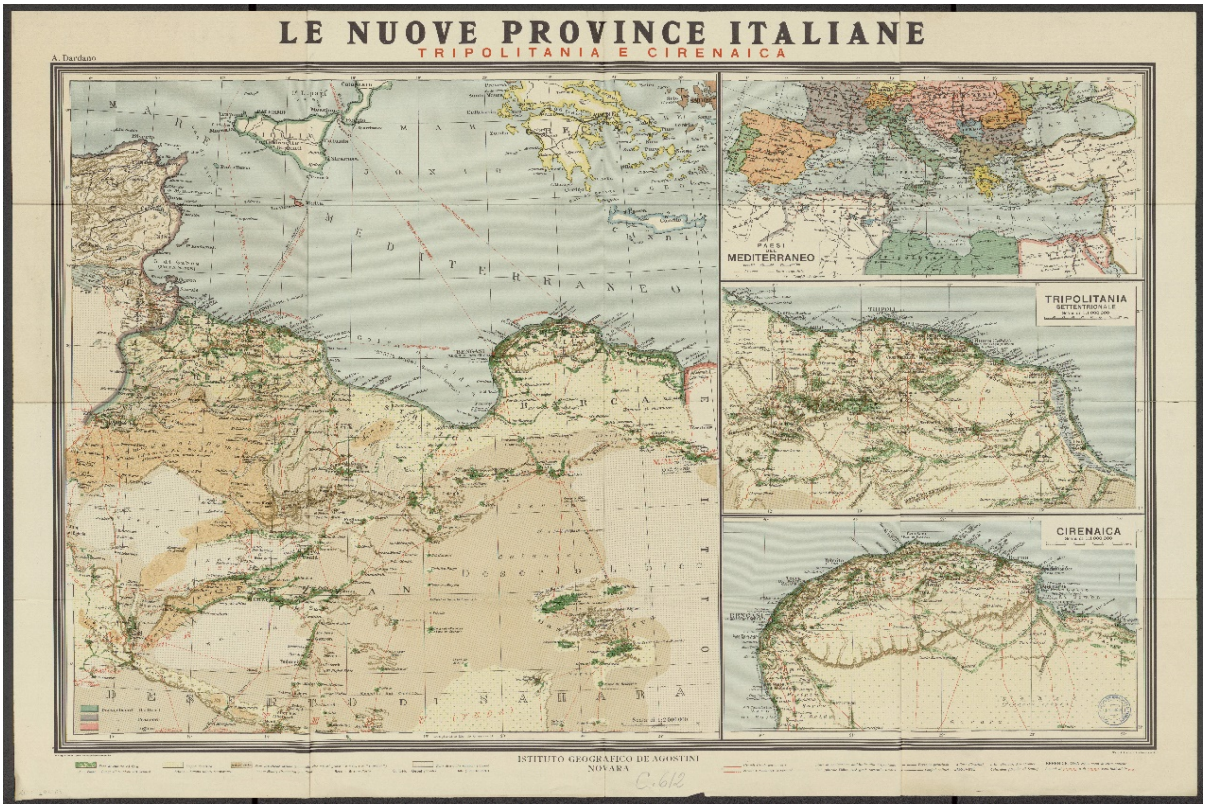

خريطة 1 ليبيا في العصر الروماني،
https://www.marefa.org/w/index.php?curid=1488762

المؤلف	العمل	القرن	الموضع المذكور	نوع الوصف	السياق السياسي/الديني	صورة السكان المحليين	الوظيفة المعرفية
هيرودوت	Histories، الكتاب الرابع	5ق.م	الصحراء الليبية، القبائل الجنوبية	إثنوغرافي/أسطوري	فضاء حدودي خارج السيطرة الإغريقية	شعوب بدوية ذات عادات مغايرة	إثارة الفضول وبناء تصور عن الأطراف
سترابو	Geographic a، XVII	1 ق.م–1 م	كيرينايكا، الساحل الشرقي	جغرافي/اقتصادي	توسع روماني إداري	مجتمعات مختلطة متوسطية/إفريقية	دمج ليبيا في الجغرافيا الإمبراطورية
بطلميوس	Geographia	2م	المدن والطرق الداخلية	رياضي/طبوغرافي	إدارة إقليمية رومانية	محايدة نسبيًا	التنظيم المكاني والضبط الإداري
بلينيوس الأكبر	Naturalis Historia، V	1م	مدن كيرينايكا، النباتات الطبية	اقتصادي/علمي	استغلال الموارد	سكان مرتبطون بالزراعة والتجارة	جرد الموارد الطبيعية
بروكوبيوس	Buildings، VI	6م	لبدة، صبراتة، الأديرة	عمراني/ديني	إدارة بيزنطية مسيحية	مدن ذات طابع روماني–محلي	توثيق التحول الديني والسياسي

جدول (1) تصنيف الإشارات إلى ليبيا في المدونات الرحلية الكلاسيكية، يعرض هذا الملحق عيّنة تحليلية من أبرز المواضع التي ورد فيها ذكر ليبيا في النصوص الإغريقية والرومانية والبيزنطية، مصنّفة وفق طبيعة الخطاب والسياق السياسي والوظيفة المعرفية، يُظهر الجدول تحوّل الخطاب من الإثنوغرافي الأسطوري عند هيرودوت إلى الخطاب الإداري والعلمي عند بطلميوس وبلينيوس، ثم إلى خطاب رمزي–لاهوتي في العصر البيزنطي، بما يعكس تغيّر وظيفة المعرفة الجغرافية عبر الزمن.

العنصر المقارن	العهد الروماني	العهد البيزنطي
دوافع الرحلة	إدارية، اقتصادية، عسكرية	دينية، رهبانية، تنظيم عمراني
طبيعة الخطاب	وصفي–تقني–إثنوغرافي	رمزي–لاهوتي–روحي
صورة الصحراء	مجال حدودي للاستكشاف والسيطرة	فضاء زهد وتطهّر
دور المدن الساحلية	مراكز تجارة ونقل معرفة	حواضر مسيحية وإدارية
موقع الدين	ثانوي مقارنة بالإدارة	مركزي في تفسير المكان

علاقة الرحالة بالسكان	مراقبة وتنظيم	تفاعل ديني واجتماعي
وظيفة المعرفة	ضبط الإقليم وموارده	ترسيخ الهوية المسيحية
تمثّل ليبيا	جزء من المجال الإمبراطوري	فضاء رمزي للتأمل

جدول (2) مقارنة صورة ليبيا بين العهدين الروماني والبيزنطي، يقارن هذا الملحق التمثلات المكانية والثقافية لليبيا في النصوص الرحلية بين الفترتين، تُبرز المقارنة انتقال ليبيا من كونها مجالًا للإدارة الاقتصادية والعسكرية إلى فضاء رمزي–ديني في الخطاب البيزنطي، وهو تحوّل يعكس إعادة تشكيل الجغرافيا وفق منظومات فكرية جديدة لا تقل تأثيرًا عن السلطة السياسية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً العربية والمترجمة:

- بطليموس، ك. (2004)، جغرافية كلاوديوس بطوليميوس: وصف ليبيا (قارة أفريقي) ومصر، ت. محمد المبروك الدويب، مشورات جامعة قاريونس، بنغازي.
- بليني الأكبر. (2019)، الكتاب الخامس من التاريخ الطبيعي، وصف أفريقيا ومصر وغرب آسيا، ت. محمد المبروك الدويب، ط.2، مركز المناهج التعليمية والبحوث التربوية، طرابلس.
- سترابو. (2003)، الكتاب السابع عشر عن جغرافية سترافون(سترابون)، وصف ليبيا ومصر، ت. محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي.

ثانياً المراجع الأجنبية:

- Bowman, A. K. (2012). *Egypt after the Pharaohs: 332 BC–AD 642*. University of California Press.
- Desanges, J. (1981). *Catalogue des tribus africaines de l'Antiquité classique*. Éditions du Centre National de la Recherche Scientifique.
- Goodchild, R. G. (1971). *Cyrene and Apollonia: An Historical Guide*. British School at Rome.
- Herodotus. (1954). *Histories* (A. D. Godley, Trans.). Harvard University Press.Mattingly, D. J. (1995). *Tripolitania*. University of Michigan Press.
- Mattingly, D. J., & Hitchner, R. B. (1993). *Roman Africa: An Archaeological Review*. *Journal of Roman Studies*, 83, 165–213.
- Procopius of Caesarea. (1940). *Buildings* (H. B. Dewing, Trans.). Harvard University Press.
- Whittaker, C. R. (1994). *Frontiers of the Roman Empire: A Social and Economic Study*. Johns Hopkins University Press.

ثالثا: شبكة المعلومات الدولية

- https://www.marefa.org/w/index.php?curid=1488762